ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

العـدد (1371) الاثـنيـن (17) تـشريـن الـثـاني 2008

أسعد عبد الرزاق.. من (الدبخانه) الى عمادة أكاديمية الفنون الجميلة

سعدي عبد الكريم

من أجل ان نكتشف مناطق الضوء ، ومواطن التألق ، ومكامن الجمال داخل تلك الومضة الخلابة الفنية للسفر المضيء لعراب المسرح العراقي الرائد المبدع الكبير أسعد عبد الرزاق عبر تلك الملامح البغدادية الجميلة التي تستقر بطمأنينة أخاذة داخل مفاتن أخلاقه العالية المؤطرة بذلك السحر الإنشائي الأول الذي يملأه التودد والحب لكل مظاهر ذلك التكوين الجميل.

بل ولكل الأشياء والمسميات ، ولجل من زامله طوال فترة مسيرته الفنية الطويلة ، التي امتدت لأكثر من ستة عقود ونيف ، وهو القادم من اريج شط المسيب ، محملاً بكل ذلك الزهو الفتيّ ، الذي أراد ان يرسم من خلاله لوحته الأسطورية الفنية الجميلة ، بجل تصانيفها الإبداعية. انه رائد من رواد المسرح العراقي ، ودعامة من دعائمه المأخوذة به بل مرتكز من مرتكزاته الفاعلة الحية ، والذي اطلق عليه الفنان المخرج المبدع (صلاح القصب) لقب (شيخ الفنانين).

بدأت علاقة الفنان الكبير (أسعد عبدالرزاق) بخشبة المسرح بداية مبكرة فراح يوثق لتلك المواشجة الحميمة المتألقة ، وفق شرائط رحلة عشق ازلية ، ابتدأت ومضاتها المتقدة الأولى منذ مراحل الطفولة وتحديداً أثناء دراسته الابتدائية ، وهو في الثامنة من عمره المديد حيث كان يلقي الأناشيد في باحة المدرسة باسترخاء ممثل مقتدر متمكناً من أدواته الفنية ، وبإلقاء مسرحي مثير للإعجاب ، ربما لم يدرك أو يكتشف هو ذاته تلك الملكة وقتذاك ، بعدها راح يغازل بتؤدة أخاذة مفاتن خشبة المسرح ، ليسهم في تدوين سجل تاريخه المسرحي المجيد ففي تلك الفترة ، جسد دور (الطفل) في مسرحية (الاقدار) ومن محاسن الصدف التي سجلها له التاريخ هو اختياره من قبل الفنان الراحل الكبير (حقي الشبلي) في دور (عماد) في مسرحية (الصحراء) للفنان الراحل الكبير (يوسف وهبي) .

الفنان الخلاق (اسعد عبد الرزاق) ذلك الكيان المتوهج بومضة الخَلق المبدعة المتألقة ، والمأخوذ بذلك الحب العذري لباحة المسرح اولاً ولباحة وحدائق وقاعات الدراسة والتدريس في كلية الفنون الجمليةً ثانياً ، والتي يجد فيها ضالته الكبرى في إنسانيته المترعة بالحب وبالتنظير العلمي والعملي ، لفن المسرح.

(اسعد عبد الرزاق) ذلك النسيج (المسيباوي) (البغدادي) الذي عانق شذى بغداد وعاش في كنفها جل حياته ، ذلك الإنسان الشفيف الذي تغلفه الوداعة ، ويواشجه الحب القديم – الجديد لبغداد الخير حينما تجالسه تجد نفسك أمام قامة تطاول عبق الجدران البغدادية الجملية ، وينفذ الى القلب بلا استئذان ، وربما تنقلك تلك الرؤى الحالمات التي تكتنفه بذات اللحظة الخلابة التي تنظر لوجهه المحتدم التقاسيم ، الذي بانت عليه شذرات الكبرياء والفحولة ، التي طبعها الدهر فوق ملامحه الموجعة القديمة، لكنك تكتشف برغم ذلك ، بأنك تجالس شابا في العشرين من عمره ، مليئاً بالحيوية والنشاط ، ومفعما بالعشق ، وبخاصة حينما يكون الحديث عن ملاذه الجليل (المسرح) ليبحر بك صوب ملاذاته الخصبة القديمة بانسياب جميل مشفوع بأرشفة تاريخية عجيبة التواقع في صلب الزمكانيات ، وجوهر الاحداث ، ربما يرجع ذلك لذاكرته الحية التي ما زالت تنبض بالجلال ، والكبرياء والعشق المسرحي .

ولد (اسعد عبد الرزاق) في بغداد عام ١٩٢٣ ، تخرج في كلية الحقوق / جامعة بغداد بعدها حصل على الدبلوم من معهد الفنون الجميلة / بغداد عام ١٩٥٧ ، تخرج من معهد (شاتروف) للتمثيل في ايطاليا ، ساهم في ترسيخ دعائم الفن العراقي ، بجل تصانيفه الابداعية ومن اجل الوقوف على دكة المحطات الفنية المبدعة لـ (اسعد عبد الرزاق) العديدة والمواترة ، بتواتر إيقاع معمليته المسرحية ومنتجه الإبداعي ، ومخاصب تجاربه التنظيرية والتدريسية، فقبل عام ١٩٥٥ عين مدرساً للتمثيل في معهد الفنون الجميلة ، ومدرباً ومشرفاً على المدارس الإعدادية في بغداد ، بعدها سافر الى روما وتحديدا عام ١٩٥٥ ، وبقي هناك لمدة اربع سنوات، لدراسة فن المسرح، وعاد في عام ، ١٩٥٩ ويبدو ان من المحطات الرئيسية في حياة وتاريخ الفنان (اسعد عبد الرزاق) هي تلك التي أصبح فيها رئيساً لفرع التمثيل في معهد الفنون الجملية.

ومن اجل ان نؤكد على حقيقة تلك الدراية المشغوفة بألق فن المسرح التي تسكن هواجس هذا المبدع الكبير، علينا ان نؤشر ظاهرة فريدة من نوعها تبقى علامة مضيئة منيرة على رأس المحطات الرائعة الجميلة في حياة الفنان المبدع الكبير (اسعد عبد الرزاق) وهي من أروع الأزمنة، بل من أخصب وأجمل التواريخ ، والمحطات التي سجلت بأحرف من ماس بغدادي لتاريخه المجيد الحافلً بتلك الخلجات الفنية التي راح يترجمها بألق على ارضية الواقع ، تلك اللحظة المجيدة الخالدة،هي لحظة تأسيسه فرقة (١٤ تموز) مع جملة من الفنانيين العراقيين، تلك الفرقة الخالدة التي أنجبت العديد من رموز الفن العراقي بمجمل مناخاته الإبداعية الرائعة .

ولعل الذي يبقى خالداً في الذاكرة الجمعية تلك المسرحية الشعبية البغدادية العراقية الأصيلة (الدبخانه) تأليف الفنان المبدع (علي حسن البياتي) ذلك العمل المسرحي الذي ظل خالداً يحاكي الذاكرة العراقية على مدى اكثر من اربعة عقود وهو يقف شامخا على رأس الأعمال العراقية المسرحية الخالدة التي يحن لها ذلك الاحياء الخفي بالانتماء للوطن أولاً ، ولفن المسرح العراقي ثانياً، برغم ان الوضوح كان قائما بتواضع الإمكانيات التقنية والفنية المسرحية وقتها ، لكنه كان عرضا مسرحيا مدهشا ، استنفر قوام المشاهدة التلفزيونية لأعوام خلت ، وسيبقى خالدا على مدى العقود القادمة ، لانه يمتلك ذلك الحس الشفيف الذي يربط العرض المسرحي با لا ستجا بة الحقيقية لفرضية ا لمشا هد ة ، لتحقيق مناهجية البهجة والفرجة ابتداءً ومن ثم ليحيلها بذات اللحظة الى التغيير عبر الوعظ المباشر، ولأنه كان من إخراج هذا المبدع الكبير (اسعد عبد الرزاق) الذي أضاف اليه من ملكته الاخراجية السلسة، ذلك الاضفاء الانبهاري البغدادي الاصيل ، وبأدوات فنية بسيطة ، وما ازدان به ذلك العرض المسرحي الرائع هو ذلك الأداء التمثيلي الرائع السهل وغير الاندماجي- وغير المعقد ، والواضح المعالم والأطر، والمؤثث باسترخائية تجسيدية محببة واقعية المذهب والإسقاط والمقرونة بدلائل استقرائية واضحة للشخصيات، والذي أبدع بل أشاع في مواطنها روح البهجة والمتعة والفرجة المثالية، وقد جسّد الأدوار الرئيسية فيها الفنان الراحل المبدع (وجيه عبد الغني) والفنان المبدع الكبير (قاسم الملاك) لأنهما ارشفا لعمل مسرحي عراقي أصيل ، اخترق بثبات مواطن الذاكرة ليستقر مطمئنا بداخلها .

الفنان القدير اسعد عبد الرزاق

في عام ١٩٦٧ عمل الفنان (اسعد عبد الرزاق) أستاذاً مساعداً في اكاديمية الفنون الجملية ، ثم مساعدا للعميد فيها ، ثم عميداً لها من عام ١٩٧٢ الى عام ١٩٨٨ .

ومن خلال عمله أستاذا قديراً ، وعميداً مخلصاً متفانياً في أداء عمله في أكاديمية الفنون الجملية ، اشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه لطلبته الذين أصبحوا فيما بعد ، أعمدة كبيرة ، وقامات شامخة وأسماء مهمة في عموم مخاصب الفن ، والمسرح العراقي.

الدكتور والفنان والمعلم الكبير (اسعد عبد الرزاق) تلك القامة الشامخة ، والملاذ الدافئ ، والحاضنة الحضارية العلمية والمعملية التي ترعرع بداخل ثيماتها الناهضة جل الفنانين العراقيين .

مثل وحكاية

(على هل رنه طحينج ناعم)

كمال لطيف

هَذا المثل يحمل في طياته أشياء كثيرة فهو يحتمل الوجهين في التفسير أو مختلف الأوجه.. وحكاية الرنة التي تأتي من (الهاون) المصنوع من معدن النحاس.. ويستعمل لدق الحمص أو القهوة أو أي شيء يراد سحنه وتنعيمه فكانت ربة البيت أو من يمثلها تضع (الهاون) وفيه المادة المراد طحنها وتبدأ بالدق على إيقاع خفيف منتظم يتردد في جنبات البيت الخالي الذي غادره الأحباب. والمثل يأتي لتكرار فعل الشيء لمرات عديدة ما يجلب المتاعب لصاحبه. فكانت المرأة وبسبب الفراغ والحرمان تبحث عن شيء تلهي نفسها به أو ان تنتقم لنفسها من زوج شرس فتبدأ بالصياح أو الصراخ أو الهذيان وهذا الأمر عندما يتكرر يومياً يصرخ الرجل (إي عل هل الرنه اطحينج ناعم) اي استمري على هذا المنوال الرتيب والمُمل والمخاطبة تحمل معنى السخرية والمرارة في آن واحد.

وهنا من تأتي فعلاً قبيحاً وتكرره بدون وازع من ضمير أو تأنيب خاطر.. فيقول الرجل المغلوب على أمره المثل مكتفياً بالسخرية وإقناع نفسه انه انتصر على عناد هذه المرأة التي وضعت في اعتبارها إلغاء أي عتاب أو مرارة بعد ان دهمها اليأس من ايجاد حل لمحنتها أو لمحنة من يسبب لها الهوان والرنين ذات الايقاع الروتيني والمُمل يحمل في معناه الحزن على شيء لا يكاد يغادر صاحبه أو محيطه فهو يسمع الايقاع نفسه يومياً فلا يصادف أي تغيير يذكر.

وهنا من يسخر ويقول: (أي داوم على هل منوال.. أي دك عيني دك خشن وناعم.. دك عيني لا تقصر.. حتى لو طرّشتنا).

والأمثال تضرب ولا تقاس.. وقد تقاس على أحداث وقعت أو انها ستقع فهو مثل حي تقاس أعماقه في كل زمان ومكان.

فالدق والرنين والأصوات الأخرى التي تنبعث من الطبول أو النقرات أو الزمارات، كلها مصادر ازعاج للانسان مثل زعيق السيارات وهدير محركاتها.. اسباب هي مردّ الفرح والحزن في حياة الانسان.

السلام الوطني في العراق

النشيد الوطني العراقي: لمحة تاريخية معاصرة

باسم حنا بطرس

اعتمدت دول العالم كافة رمزَيْن يعبِّران عن هوية البلد كدولة معتَرَف بها؛ هذان الرمزان هما (العلَم والنشيد الوطني).

ولكلا الرمزَين شروطٌ ينبغي الأخذ بها؛ ولهذه الشروط شروط فنيَّة موازية. لكنها تجتمع في هدف مركزي واحد، هو رمز تكريم البلد، أرضاً وشعباً وسيادةً. لذلك أخذت الدول بوضع قوانين خاصة تفرد فيها الشكل التصميمي للعَلَم، من حيث اللون والمقاييس والمفاهيم المعتمدَة فيه. وكذلك تلزم الأعراف الدولية احترام العلَم لأنه رمز سيادة البلد.

أما النشيد الوطني، الذي اعتدنا تعريفه بالسلام الجمهوري أو الملكي أو الأميري، فله شروطه الفنية من حيث شكل وبنية اللحن، الذي قد يكون لحناً موضوعاً على كلام مقفًى (قصيدة)، أو لحناً مستقلاً بذاته، تؤدّيه الفِرق الموسيقية وبخاصة أجواق الموسيقى العسكرية.

العراق، كدولة حديثة تأسست في عام ١٩٢١ باسم (المملكة العراقية) ، وصار الملك فيصل الأول ملكاً عليها، كان له (السلام الملكي) الموضوع من قبل ضابط موسيقى بريطاني، شكل لحنه عبارة عن نغمات صادعة ونازلة عبر تسلسها في السلّم الموسيقيِ المعتمَد. وهو لحنٌ بسيط مبني على الوزن الثنائي (٤/٢) بإيقاع المسير. وعليه تم وضع نصّ كلامي يقول مطلعه:

دُم يا كريمَ النسب
يا شريفَ الحسب
فيصلٌ؛ فيصل.

ي تلك الحَقبة من تاريخ العراق الحديث، كان لزاما إفتتاح جميع الفعاليات بالسلام الملكي، الأمر الذي يستوجب وقوف الناس إحتراماً. على سبيل المثال، كانت دور السينما تعرض فلماً يُظهر ملك البلاد (في زمننا كان الملك فيصل الثاني) ومن خلفه العلَم العراقي مرفرفاً، على صوت الأسطوانة القرصية (الفونوغرافية) المسجَّل عليها موسيقى السلام. (المدوَّنة الموسيقية في الشكل رقم ١). بقي هذا السلام معتمَداً طوال العهد الملكي حتى سقوطه صبيحة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨، فسقطت معه كافة المسمَّيات والرموز الملكية في العراق.

مسلسل المتغيرات السياسية في العراق

بطبيعة الحال، عند حدوث انقلاب أو تغيير نظام الحكم في البلاد، كما في مسلسل المتغيرات الناجمة عن الإنقلابات والثورات المتتابعة، يأتي العهد الجديد بالرموز الجديدة التي يريدها تعبيراً عن سيادة الوطن، وهكذا كان الأمر مع كلٍّ من النشيد الوطني والعلم العراقي بشكل أكثر بروزاً من بين كل المتغيرات، كونهما ملازمَيْن للحدَث اليومي للشعب والبلاد.

السلام الجمهوري (ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨)

في العهد الجمهوري، تقرر إلغاء العلَم والسلام الملكيين، واستبدالهما برمزَين جديدَين للجمهورية العراقية.

بقدر تعلق الأمر بالسلام الجمهوري العراقي، هكذا صار إسمه، كان الموسيقي العراقي الراحل (لويس زنبقة) من خريجي قسم الموسيقى الهوائية في معهد الفنون الجميلة أواسط الخمسينيات، يواصل دراساته الموسيقية في العاصمة النمساوية (فيينا) عند قيام ثورة ١٤ تموز، فبادر هناك إلى وضع لحن للسلام الجمهوري، وتدوينه موزَّعاً على جميع أقسام (آلات) جوق الموسيقى الهوائية وتسجيله من قبل جوق موسيقي نمساوي؛ قدِّمه مرفقاً برسالة منه إلى الزعيم عبد الكريم قاسم، قائد الثورة، عبر سفارة العراق في فيينا، شارحاً فيها الأفكار والمضامين التي إعتمدَها في صياغة اللحن، وهو بشكل مارش المسير (Marsh). وبهذا تقرر اعتماده سلاماً وطنياً للجمهورية العراقية. (المدونة الموسيقية في الشكل رقم ٢).

مرحلة ما بعد ١٩٦٣

تم إعتماد لحن نشيد (والله زمن يا سلاحي) لملحنه المصري كمال الطويل، إبّان قيام انقلاب ١٤ رمضان (٨ شباط/فبراير عام ١٩٦٣).

إستمر هذا النشيد بعد قيام ثورة ١٧ تموز عام ١٩٦٨، لغاية عام ١٩٨١ حين تقررت إقامة مسابقة لتلحين النشيد الوطني الجديد للشاعر شفيق الكمالي، تولّت دائرة الفنون الموسيقية بوزارة الإعلام تسجيل كافة المشاركات الموسيقية للفنانين العراقيين ومن ثم الاستماع إليها من قبل لجنة متخصصة، قامت بوضع الدرجات التقويمية لكل منها. رجحَّت النتائج مشاركتَين لضابطين من الموسيقى العسكرية هما عبد السلام جميل فرنسو وعبد الرزاق العزاوي، بحكم اختصاصهما المهني/الفنّي بمثل هذا النوع من الموسيقى.

لكن لعبةً جرت في الخفاء تمثلت بتكليف الموسيقي اللبناني وليد غلمية، حين كان متعاقداً مع حكومة العراق لتأليف أعمال موسيقية وتلحين أناشيد قومية. فقام غلمية بوضع لحن له، تم تسجيله من قبل أوركسترا يونانية ومن ثم اعتماده عام ١٩٨١ بمرسوم جمهوري.

يقول مطلع النشيد:

وطنٌ مدَّ على الأفقِ جناحا وارتدى مجد الحضارات وشاحا
بوركَت أرض الفراتين وطن عبقري المجد عزماً وسماحا.

أما اللحن فقد كان بالصيغة المعتادة في الأناشيد المدرسية، مفتقراً إلى المواصفات الفنية الخاصة بالسلام الوطني (الملكي أو الجمهوري). قد تكون كثرة أبيات القصيدة المغناة وطولها سبباً، الأمر الذي تطلَّب قيام مدير الموسيقى العسكرية العراقية ومعاونه بالسفر إيفاداً إلى إنكلترا لإعادة صياغة اللحن كي يلائم البنية الفنية لأجواق الموسيقى العسكرية التي تتولى في العادة أداء السلام الوطني. تم تسجيل لحن النشيد من قبل جوق بريطاني.

مرحلة تغيير نظام الحكم في العراق

بعد تغيير نظام الحكم العراقي في عام ٢٠٠٣، أخذت بعض الإجتهادات «العاطفية» تدعو لاعتماد نشيد (موطني) الذي كان يُنشَد فترة الثلاثينيات حتى الخمسينات، سلاماً ونشيداً وطنياً للعراق. لما للنشيد من وقع في نفوس العراقيين.

كما قيل بأن الهيئة الحاكمة في البلاد تروم تغيير النشيد الوطني والعلم العراقي. وقيل أيضاً بأن ثمة لجنة تم تشكيلها لوضع الأفكار المطلوبة حول إختيار النشيد المزمَع ترشيحه نشيداً (سلاماً) وطنياً لدولة العراق. لكن الأمور ظلَّت طي الكتمان، اكتنفها الصَمْت.

ومن بين ما طُرحَ على الساحة، نشيد (موطني) باعتباره، كما أسلفنا، من بين أبرز الأناشيد الوطنية والقومية التي تغنت بها حناجر الشعب إبّان استقلال العراق وتأسيس دولته الدستورية مطلع القرن العشرين المنصرم.

نبذة عن الأناشيد الوطنية في العراق

لعلّي هنا أستدرك لأدير دفّة الموضوع إلى سالف الأيام عند تأسيس الدولة في العراق الحديث، المملكة العراقية في عام ١٩٢١، كي نأخذ منها قبسَ ضوءٍ نمنح من خلاله القاريء فرصة التعرف إلى نشيد موطني.

إنتشرت الأناشيد (القومية) في بلاد ○الهلال الخصيب□ الذي يشمل بلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) والعراق، فصار النشيد بمثابة جسر يربط بين شعوب هذه البلدان، لتدفع في النُفوس حميَّة التحرر لنيل استقلال البلد من السيطرة الأجنبية السائدة آنذاك.

في العراق، وهو موضوع بحثنا، كان النشيد الوطني منتشراً بين صفوف الشبيبة من الطلبة وفصائل الحركة الكشفية، على يد روّاد عراقيين، كان في المقدمة منهم (الموسيقار حنا بطرس) بصفته المسؤول الموسيقي في الهيئة القائدة للحركة الكشفية، ومسؤولاً عن جوقها الموسيقي. فلحَّن مجموعةً كبيرة من الأناشيد لأبرز الشعراء العراقيين والعرب آنذاك، نذكر من بينها:

– محمد باقر الشبيبي، في عدد من الأناشيد الملكية، منها النشيد القومي الملكي، الذي يقول مطلعُه:

التاجَ ظفرناهُ – والعرشَ أقمناهُ
والحُكمُ لنا شورى – قد أصبح دُستورا

– صادق الأعرجي، من بين أبرز أناشيده نشيد ذكرى المولد الملكي، يقول مطلعه:

يا مليك دولتنا – أنت دولة العرب
يا سليلَ سادتنا – أنت سؤدَد العرب

أما خليل مردَم، فاشتهر بنشيده (حماة الديار) الذي يقول مطلعه:

حماة الديار عليكم سلامُ أبَت أنْ تذلَّ النفوس الكرامُ

ولفخري البارودي نشيد (نحن طلّاب المعالي) يقول مطلعه:

نحن طلاب المعالي نحن جندُ العرب
حين نمشي لا نبالي بالأذى والنُوَب.

وقامت الفصائل المذكورة بإنشادها على وقع الطبول ونفير الأبواق وهي تهدر أثناء خط مسيرها عبر شوارع بغداد، وجماهير الشعب تتابع مواكب المسير وتسهم في ترديد النشيد.

في عام ١٩٣٦، شهدت بغداد تأسيس إذاعتين، هما: محطة بغداد للإذاعة اللاسلكية (هكذا كان اسمها الرسمي)، وإذاعة قصر الزهور، التي عملت تحت توجيه وإشراف الملك غازي الأول، اختصت حصراً بالدفاع عن القضايا الوطنية والقومية، حيث عمل فيها حنا بطرس مشرفاً للموسيقى والنشيد، فكانت تقدَّم الأناشيد القومية الملحَّنة من قبله وبإشرافه شخصياً، وكان المنشدون من طلبة المعهد الموسيقي ببغداد (المؤسَّس في نفس عام) وفصائل الفتوة والكشافة.

هكذا أخذت الأناشيد تقدَّم وتنتشر من خلال الأثير، بأصوات طلبة المدارس والمعاهد وفصائل الفتوة والكشافة العراقية ملتحمةً مع حناجر جماهير الشعب المرددة. وبرز من بينها نشيد (موطني).

تحليل نشيد موطني

حين نقرأ كلمات النشيد نستشعر نبرَ إيقاع كلماته الواضح، وتتكشف أمامنا الوحدة الإيقاعية:

أما اللحن فقد بُنيَ على إيقاع المسير الثنائي (بمعنى واحد اثنان) كما موضح في المدوَّنة الموسيقية المعروضة هنا ضمن مقالنا هذا.

موطني موطني
الجلال والجمال
والسناء والبهاء في رُباك
في رُباك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء
في هواك في هواك
هل أراك: سالماً منَعَّماً غانماً مكرَّماً